القصيم بين توحيده وتثبيت الحكم فيه

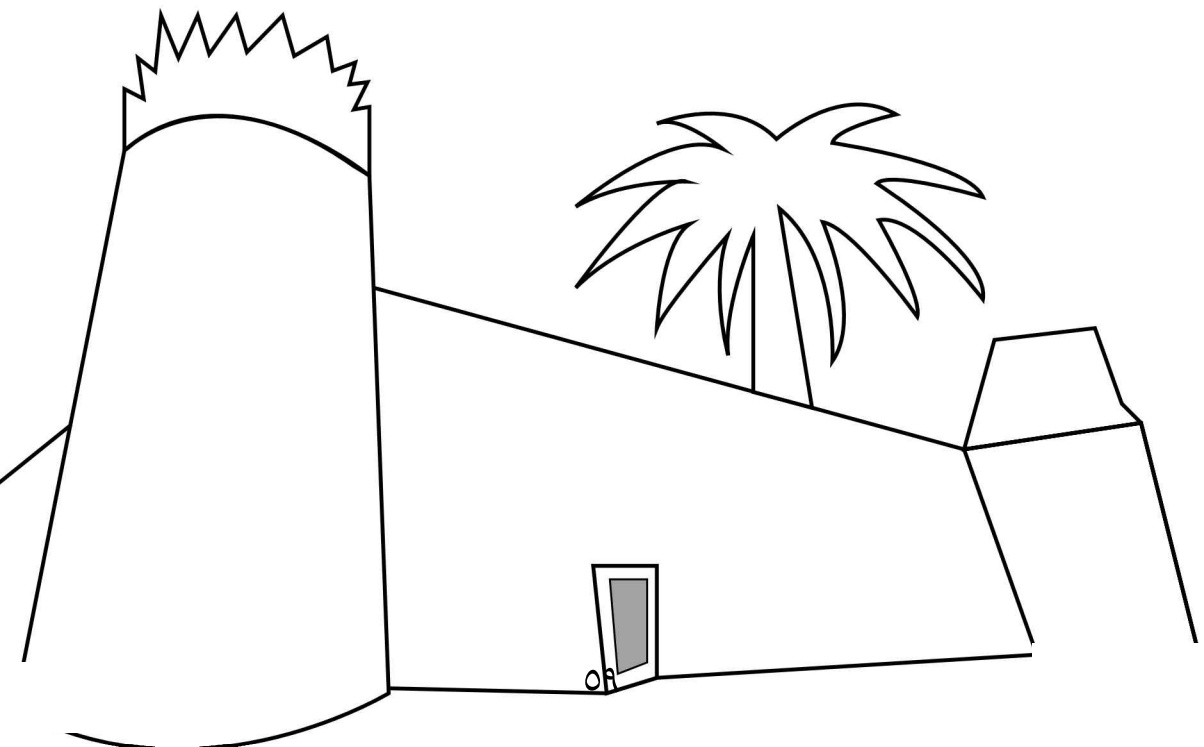

١-معركة البكيرية:

وصل إلى الأمير عبدالعزيز بن رشيد خبر دخول عُنَيزة وبُرَيدة تحت حكم الملك عبدالعزيز بتأييد من أهاليهما، وهو لا يزال قرب السماوة في العراق للتزوُّد بالأطعمة، واستنهاض شَمَّر الموجودين في ذلك القطر، والاستنجاد بالدولة العثمانية. وقد أثار موقف أهل القصيم غضبه الشديد، فقام بحجز ما وجده من إبل العقيلات القصيميين في شمال الجزيرة العربية، ثم حمل عليها قسمًا كبيرًا مما حصل عليه من أطعمة ومؤن وأسلحة من العراق إلى نجد[١]. وكان مما اتَّبعه من أساليب للحصول على مساعدة العثمانيين أن دفع هدايا مغرية إلى موظفيهم الكبار؛ خاصة أولئك الذين كانوا في العراق والحجاز، وادَّعى أن الملك عبدالعزيز ومبارك بن صباح قد أبرما اتِّفاقًا مع بريطانيا يُخوِّلها السيطرة على جزيرة العرب[٢]. ولا شك أن الدولة العثمانية لم تكن في حاجة إلى من يخبرها بما كان بين بريطانيا ومبارك بن صباح من اتِّفاق على حماية بلده. فقد كان ذلك معلنًا للملأ حينذاك. ولا شك، أيضًا، أنها كانت تعلم، بوسائلها الخاصة، أنه لم يُتمَّ أَيُّ اتِّفاق بين الملك عبدالعزيز والبريطانيين في تلك الحقبة. وإذا كان من المُرجَّح أن ما دفعه ابن رشيد من هدايا قد جعل المُهْدَى إليهم يُكثِّفون جهودهم لإقناع السلطات العثمانية العليا بمساعدته، فإن ما حَقَّقه الملك عبدالعزيز من نجاح كبير في نجد؛ خاصة في القصيم، قد جعل تلك السلطات تخشى عواقب ذلك النجاح. وكان لتلك الخشية، فيما يبدو، أكبر الأثر في موافقتها على إمداد ابن رشيد بما كان ينشده من عون. لقد رأت أن الملك عبدالعزيز وَحَّد نجدًا كلها، باستثناء إقليم جبل شَمَّر، خلال عامين ونصف العام فقط. وهي تعلم من تاريخ

(١) القاضي، ص ص ١٣ - ١٤. وقد أشار إلى أن تلك الإبل كانت حوالي ثمانين رعيَّة. والمعروف أن الرعيَّة يتراوح عددها بين الثمانين والمئة.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣.

أسلافه أنه متى تَوحَّدت نجد فإن الطريق إلى توحيد منطقة الأحساء والقطيف معها غير شاقة ولا طويلة. وكانت تلك المنطقة حينذاك تحت الحكم العثماني.

وتختلف المصادر في تحديد كَميَّات الأسلحة وأعداد القوات النظامية التي أَمدَّ العثمانيون بها الأمير عبدالعزيز بن رشيد[1]. لكنها تَتَّفق على ضخامة تلك الأسلحة وتَطورُّها مقارنة بالأسلحة المتداولة في نجد في ذلك الزمن، كما تَتَّفق على أَهميَّة وجود قوات نظامية تستعملها.

سار الأمير عبدالعزيز بن رشيد من الحدود العراقية باتِّجاه القصيم ومعه القوة النظامية العثمانية، ومئات من حاضرة قومه، وفئات كبيرة من البادية أغلبها من قبيلة شَمَّر[2]. ولما دخل إلى ذلك الإقليم انضمَّ إليه ماجد الحمود بن رشيد ومن خرج معه من حاضرة شَمَّر. ووصل الجميع إلى بلدة قُصَيباء[3].

---

(١) تقدِّرها المصادر كما يلي:

القاضي، ص١٤: ستة طوابير وستة مدافع.

الريحاني، ص١٤٠: أحد عشر طابورًا وأربعة عشر مدفعًا.

ابن هذلول، ص٦٩: أحد عشر طابورًا وأحد عشر مدفعًا.

البسام، ورقة ١٣٣أ: ألفان وخمس مئة جندي وثمانية مدافع.

إبراهيم بن عبيد آل عبدالمحسن، **تذكرة أولي النهى والعرفان بأيّام الله الواحد الديَّان وذكر حوادث الزمان**، الرياض، دون ذكر لسنة الطباعة، ج٢، ص٢٢: حوالي تسعة آلاف وأربعة عشر مدفعًا.

لوريمر، **دليل الخليج: القسم التاريخي**، ترجمة مكتب، أمير دولة قطر، الدوحة، ١٣٩٥هـ، ج٣، ص١٧٠٤: ألفا جندي وستة مدافع.

آرمسترونج، وترجمة عنوان كتابه **سيد جزيرة العرب**، بيروت، ١٩٦٦م، ص٥٠: ثمانية طوابير وستة مدافع.

فاسيلييف، ص٢٥٦: ألفا جندي وستة مدافع.

(٢) القاضي، ص١٤؛ ابن هذلول؛ ص٧٠.

(٣) قُصَيْباء: بلدة شمال غربي بريدة تبعد عنها حوالي ٧٤ كيلًا. وكانت تكثر فيها المستنقعات التي يعيش فيها البعوض المسبب لانتشار الملاريا. انظر عنها محمد بن ناصر العبودي، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: بلاد القصيم**، دار اليمامة في الرياض، ١٣٩٩هـ، ج٥، ص ص ٢٠١٨ - ٢٠٥٧.

وهناك قدم عليهم عبدالرحمن بن ضَبْعان ورجاله[1]. وقد أسف ابن رشيد أسفًا شديدًا لعدم وصوله إلى بُرَيدة قبل خروج قائد حاميته منها. واستمر في زحفه نحو هذه البلدة حتى وصل في نهاية الأمر إلى الشِّيحيَّة المجاورة للبُكَيْرية[2].

وكان الملك عبدالعزيز قد علم بحجم القوات التي أقبل بها الأمير عبدالعزيز بن رشيد إلى القصيم، وتابع تَحرُّكاته. فبعث إلى جميع أتباعه من الحاضرة والبادية يطلب منهم أن يوافوه بزيادة محاربين حتى اجتمع لديه عدة آلاف[3]. ثم خرج من بُرَيدة، ونزل البُصّر[4]. ثم ارتحل إلى البُكَيْرية حيث أصبح في مواجهة قوات خصمه؛ وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٢٢هـ/ يوليو ١٩٠٤م[5].

وما كاد الملك عبدالعزيز يصل إلى قرب البُكَيْرية حتى بدأ القتال بين الطرفين عند منتصف النهار. وقد رَكَّز ابن رشيد وأتباعه هجومهم على الجهة التي كان فيها الملك عبدالعزيز ومن معه من أهل العارض وأقاليم نجد الواقعة جنوب القصيم. ولم يَحلَّ وقت صلاة العصر إلا وقد أُنهِك هؤلاء؛ خاصة من

---

(١) القاضي، ص١٤. وقد ذكر أن ابن ضبعان توفي بعد وصوله إلى تلك البلدة بقليل. وكان قد انتشر مرض بين الجنود النظاميين بصفة عامة.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤. وقد قدَّرهم بعشرة آلاف.

(٤) البُصّر: أقصى خبوب بريدة من جهة الغرب. انظر عنها العبودي، ج٢، ص ص ٥٨٦ - ٥٨٩.

(٥) يذكر القاضي (ص١٥) والبسام (ورقة ١٣٣ب) أن هذا كان في آخر الشهر. لكن الريحاني (ص١٤١) يقول: إنه حدث في أوله.
ويبدو أن ابن هذلول (ص٧٠) قد اعتمد على الريحاني. وقد أشار العبودي (ج٢، ص٥٨٨) إلى أن معركة البكيرية كانت في أول ربيع الثاني. وعزا ذلك إلى لوريمر، ج٥، ص٥٦٦١. والواقع أن لوريمر ذكر المعركة في الجزء الثالث من القسم التاريخي، ص١٧٠٤، وقال: إنها حدثت في ١٥ يوليو ١٩٠٤م، أي في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٢هـ.
ومن المرجَّح أن القاضي والبسام - وهما مؤرخان محلّيان معاصران لوقوع الحادثة - أقرب إلى الصحة.

نيران المدافع التي أصابت شَظيَّة منها يد الملك اليسرى، فبدأوا ينهزمون. واقتفى أثرهم قوم ابن رشيد. وكان أهل القصيم قد أحرزوا تَقدُّمًا ضد من كانوا أمامهم من جيش هذا الأخير، وهزموهم. ولم يعلموا أن الملك ومن كانوا في جهته قد انهزموا. وفي تَعقُّبهم لمن انهزموا أمامهم وصلوا إلى أولئك الذين كانوا في ساقة المنهزمين من جيش الملك عبدالعزيز. ويبدو أن هؤلاء قد ظَنُّوا أن الملك لم ينهزم حقيقة، وإنما عمل التفافًا حولهم، فانهزموا أيضًا أمام أهل القصيم. وظَلَّ هؤلاء في أثرهم حتى حلول الليل[1].

وكانت خسائر الطرفين المتحاربين كبيرة. لكن المصادر تختلف في تقدير أعداد القتلى[2]. وقد قُتِل في المعركة ماجد الحمود بن رشيد[3]. وكان أكثر

---

(١) القاضي، ص١٥.

ذكر الزركلي (ج١، ص١٥٠) أن الملك عبدالعزيز قسم جيشه قسمين: أحدهما بقيادته، والثاني - الذي يتكوَّن من أهل القصيم - بقيادة عبدالله بن جلوي. والمصادر المعاصرة لتلك الحادثة لا تذكر أن هذا الأخير كان قائدًا لأهل القصيم. ومما يرجِّح عدم صحة ما ذكره الزركلي؛ إضافة إلى عدم ذكر تلك المصادر المعاصرة ما ذكره، أن قائدي غزوي بريدة وعنيزة اختلفا بعد انتهاء المعركة حول المكان الذي ينبغي أن تؤخذ إليه المدافع. ولو كان عبدالله بن جلوي قائدًا لأهل القصيم في المعركة لكانت له الكلمة الفصل بصفته قائدًا. على أن ابن هذلول (ص٧٠) ذكر أنه عندما مشت جنود الملك عبدالعزيز إلى المعركة اتفق أن عبدالعزيز بن جلوي كان يرافق أهل القصيم. ويبدو أن هذا الأخير قد انضم إلى أهل القصيم عندما اختلط حابل المعركة بنابلها.

(٢) يذكر الريحاني (ص١٤١) أن عدد القتلى من جيش الملك عبدالعزيز ٩٠٠ بينهم ٦٥٠ من أهل الرياض، وعدد القتلى من أتباع ابن رشيد ١٣٠٠ بينهم ١٠٠٠ من النظاميين. ويبدو أن الزركلي اعتمد عليه، فأشار (ج١، ص ص ١٥١ - ١٥٢) إلى ما يقرب من تلك الأعداد إلا أنه جعل المقتولين من جيش الملك عبدالعزيز من أهل الرياض وما جاورها فقط. وهذا خطأ واضح. أما ابن هذلول (ص٧٠) فيذكر أن قتلى النظاميين ١٥٠٠ وقتلى أهل حائل ٣٠٠، وقتلى أتباع الملك عبدالعزيز ٤٠٠ فقط. وأما ضاري الرشيد (نبذة تاريخية عن نجد، أملاها ضاري الرشيد وكتبها وديع البستاني، دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦هـ، ص١٢٠) فيقول: «قتل من العسكر فوق المئتين، ومن قوم ابن رشيد مقدار مئة، وأما ابن سعود فجنده ما عدا أهل القصيم تلفوا». ويجعل آل عبدالمحسن (ج٢، ص ص ٢٣ - ٢٤) قتلى الملك عبدالعزيز ٩٠٠ بينهم ٦٥٠ من أهل العارض، وقتلى ابن رشيد ٩٠٠، أيضًا، بينهم ٤٠٠ من النظاميين.

(٣) البسام، ورقة ١٣٣ب؛ الريحاني، ص١٤١.

القتلى من جيش الملك عبدالعزيز من سكان إقليم العارض خاصة وأقاليم نجد الواقعة جنوب القصيم عامة لتركيز هجوم ابن رشيد بفرسانه ومدافعه عليهم. أما القتلى من جيش ابن رشيد فكان أكثرهم من القوات النظامية[1]. ذلك أن فرسان الحاضرة والبادية الذين كانوا معه تَمكَّنوا من الهروب أمام نيران بنادق أهل القصيم أسرع من تلك القوات. ويبدو أن النظاميين قد أَحسُّوا بأنهم تُرِكوا وحدهم في الميدان مما أَثَّر في نفوسهم، فأثَّر في مواقفهم القتالية مستقبلًا.

وعاد أهل القصيم من تَتبُّعهم فلول المنهزمين من جيش ابن رشيد إلى البُكَيْرية ومعهم بعض الأسرى من الجنود النظاميين، وفي أيديهم الكثير مما غنموه من أموال وأسلحة؛ إضافة إلى المدافع[2]. لكنهم في الوقت ذاته أدركوا أنهم قد يَتعرَّضون للخطر فيما لو اكتشف ابن رشيد أنهم كانوا وحدهم هناك. ولذا غادروا البُكَيْرية عائدين إلى بلدانهم بما استطاعوا حمله من غنائم وأسلحة تاركين الأسرى والمدافع في أماكنها[3].

وكان الملك عبدالعزيز -بعد انهزامه- قد اتَّجه جنوبًا ومعه عدد قليل جِدًّا من أتباعه حتى تجاوز بلدة المِذْنب. أما بقية المنهزمين من جيشه فقد اتَّجهوا، أيضًا، جنوبًا. ومع أذان العشاء، بعد يوم المعركة، وصل إلى عُنَيزة أعداد منهم يحملون أخبار الهزيمة. لكن لم ينتصف الليل إلا وقد وصل إلى هذه البلدة رسول من أمير غزوها، صالح الزامل، يحمل خطابًا إلى أميرها، عبدالعزيز بن سُلَيْم، يفيد بأن أهل القصيم انتصروا على جيش ابن رشيد. فبعث ذلك الأمير رسالة إلى الملك عبدالعزيز مع مجاهد الحَبَردي يخبره بما تَمَّ من نصر، ويسأله أن يقدم

---

(١) هذا واضح مما ذكرته المصادر المشار إليها في الهامش الأول.

(٢) القاضي، ص١٥.

(٣) العبيِّد، ص١٤١.

إلى عُنَيزة كي يقوم الجميع بالتجهيز من جديد لمقاومة خصمهم[1]. لكن الملك لم يطمئن، فيما يبدو، إلى صدق ما تَضمَّنته الرسالة، فتلكَّأ في المجيء. وحينئذ أرسل الأمير وكبار أهل بلدته رسالة أخرى إليه، وبعثوها مع عبدالعزيز بن جلوي وشلهوب الذين كانا قد وصلا إلى عُنَيزة مع الغزو المنتصر في فجر اليوم التالي لحدوث المعركة، وشاهدا ما حدث. فاقتنع الملك بصحة ما قيل له، وقدم إلى عُنَيزة[2].

وكان ابن رشيد، بعد انهزامه في البُكَيْرية، قد وصل إلى الشِّيحية حيث أخذت فلول المنهزمين من أتباعه تتابع في الوصول إليه ليلًا. وفي صباح اليوم التالي علم بأن أهل القصيم قد تركوا الأسرى والمدافع في ميدان المعركة، وغادروا المكان. فعاد مسرعًا إلى البُكَيْرية. ثم تَوجَّه بعد ذلك إلى بلدة الخَبْراء، وطلب من أهلها أن يدخلوا في طاعته، فأبوا. فأخذ يقطع النخيل التابعة لها ويقذفها بنيران المدافع، لكن أهلها صمدوا أمامه أيامًا. وكان لهذا الصمود، أيضًا، أثره في نفوس قادة القوات النظامية، الذين اكتشفوا عدم صحة ما قاله لهم ابن رشيد عن سهولة الاستيلاء على بلدان القصيم[3].

بعد وصول الملك عبدالعزيز إلى عُنَيزة بعث سَريَّة إلى البُكَيرية أملًا في الحيلولة دون وقوعها في يد ابن رشيد. لكن تلك السَّريَّة اكتشفت أن ابن رشيد قد استولى عليها، فرجعت إلى عُنَيزة. وبعد ذلك استنفر الملك أتباعه من الحاضرة والبادية، فلبُّوا نداءه. وانطلق إلى البُكَيرية. ولما اقترب منها علم به ابن رشيد،

---

(١) علم أمير عُنَيزة باتجاه الملك عبدالعزيز من رجل يقال له: عبدالله بن قعدان، وصل إلى هذه البلدة ليلًا، وأفاد أميرها بأنه قد صَلَّى المغرب مع الملك في مكان اسمه كريِّع، وهو مُتَّجه صوب المذنب. القاضي، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٥ - ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦؛ العبيِّد، ص ص ١٤٢ - ١٤٣.

فبعث قسمًا من خَيَّالته إليها للحيلولة دون وقوعها في يد خصمه. فاشتبكوا مع جيش الملك عبدالعزيز، وانهزموا. ثم اقتفى الملك وأتباعه أثر ابن رشيد، الذي كان قد ارتحل من جوار الخَبْراء إلى الشِّنانة، حتى وصلوا إلى الرس[1].

٢- معركة الشِّنانة:

بعد أن وصل ابن رشيد إلى الشنانة اتَّخذها معسكرًا له. أما الملك عبدالعزيز فاتَّخذ من الرس له مركزًا. وبقي الطرفان في موقعيهما حوالي شهرين. وكان يحدث بينهما تبادل إطلاق نار بالبنادق قليل، وطراد خيل محدود[2]. ومع مرور الوقت بدأ الملل يَدبُّ في صفوف الفريقين؛ خاصة فئات القبائل البدوية التي تُحبِّذ، عادة، حسم المواقف لتنصرف إلى رعاية شؤونها الخاصة. وإدراكًا من الملك عبدالعزيز لتلك الظروف بعث فهدًا الرشودي، أحد وجهاء بُرَيدة العظام، إلى ابن رشيد يعرض عليه أن تقوم هدنة بينهما. لكن هذا الأخير سخر بهذا العرض، وهَدَّد بإنزال البطش بخصومه؛ خاصة أهل القصيم الذين ينتمي إليهم الرشودي. وكانت تلك السخرية وذلك التهديد مما زاد من حماسة أتباع الملك عبدالعزيز ضِدَّ ابن رشيد. بل إن موقفه المُتشدِّد لم يكن في صالحه لدى كبار قومه أنفسهم. فبعد أيام من رفضه الهدنة مع الملك عبدالعزيز أتى إليه زعماء القبائل الذين معه، وقالوا له: إن غنمنا كادت تنتهي، وإبلنا وخيلنا تنقص يَوميًّا[3]، وأقواتنا شحيحة؛ بل إن الجنود النظامية اضطروا إلى أكل جُمَّار النخيل. وجلب المؤن من العراق مُعرَّض دائمًا لخطر غارات خصومنا. أما

---

(١) القاضي، ص١٧؛ البسام، ورقة ١٧٤أ، ابن هذلول، ص٧٢.

(٢) يُسمَّى هذا الوضع من المواجهة محليًّا: المناخ. ولذلك تُردِّد القصص المحلِّية أنباءه بمناخ الشِّنانة.

(٣) حدث ما ذكر لأن الأغنام والإبل بالذات تحتاج إلى الرعي. والعشب غير متوافر في فصل الصيف. ثم إن ذهابها بعيدًا عن المخيَّم كان يعرضها لهجمات الخصوم والاستيلاء عليها.

ابن سعود فيعتمد على نتاج بلدانه التي هو فيها. فلا بد من مناجزته أو الرحيل من المكان، فاختار الرحيل[1]. وشَدَّت باديته رحالها من الشِّنانة قبله. ولما بدأ هو وحاضرة جيشه والقوات النظامية بالتَّحرُّك فاجأهم الملك عبدالعزيز وأتباعه بالهجوم، وتقاتل الطرفان وجه النهار. ثم عاد الملك ومن معه إلى مركزهم في الرس. وفي اليوم التالي توجه ابن رشيد إلى قصر ابن عُقَيِّل، وأخذ يضربه بنيران المدافع. ولما علم الملك عبدالعزيز بذلك انطلق بأتباعه إلى هناك، ودخلوا القصر ليلًا. ولقد تَبَّين لابن رشيد أنه غير قادر على احتلاله، فبدأ يَشدُّ رحاله عنه. وتركه الملك عبدالعزيز حتى أكمل تحميل مُعدَّاته ومؤنه وبدأ يتحرَّك من مكانه، ثم هجم عليه. ولما اشتد القتال بين الطرفين انهزمت القوات النظامية التي مع ابن رشيد، ثم لحق بها في الهزيمة باقي جيشه مُخلَّفين وراءهم المدافع والشيء الكثير من الأسلحة وصناديق الذهب[2]. وهكذا انتهت المعركة التي

---

(١) القاضي، ص١٧. وقد ذكر اضطرار الجنود إلى أكل جمار النخيل، أيضًا، ابن ناصر، ج١، ص٥٣. على أن ابن رشيد قد قام بقطع كثير من نخيل الشنانة تشفِّيًا، كما هدم منازلها، وقتل عددًا من رجالها.

(٢) يعبِّر القاضي بلهجته المحلِّية التي كتب بها تاريخه عن سير تلك المعركة، فيقول (ص١٧): «الكل منهم (ابن سعود وابن رشيد) مشى على الثاني. العسكر معهم غيضه (غيظ) على ابن رشيد عقب كون (معركة) البكيرية يزعمون أن أهل حايل هربوا عنهم، وخلّوا الذبح عليهم. ثم جاهم من ابن رشيد ما يغيظهم بعدها سبب كل الأمور الذي (التي) هو قال لهم ولغيرهم ما لقوا منها (شيئًا) فقال حسني للعسكر إذا نشب الكون نريد نهرب مثلما هربوا عنا. فيوم سار بعضهم على بعض، وتقاربوا، وثار أول هيق (انطلقت الرصاصات الأولى) انسحبوا العسكر هاربين. ثم اتبعوهم الباقين (الباقون)».

ومن المحتمل، أيضًا، أن ما لقيه أولئك الجنود من أهوال في معركة البكيرية بالذات قد أخافهم، وأنهم قد أصبحوا مقتنعين بأنهم يحاربون معارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل. فما الفائدة من تلقِّي خطر الموت لصالح من يحاربون إلى جانبه؟

ولمزيد من المعلومات عن معركة الشنانة يمكن الرجوع إلى الريحاني، ص ص ١٤٦ - ١٤٧؛ ابن هذلول، ص ص ٧٢ - ٧٣؛ الزركلي ج١، ص ص ١٦٣ - ١٦٥. وقد ذكر هؤلاء أن صناديق الذهب حملت إلى الملك في عنيزة. وأشار الأول منهم إلى أنها وُزِّعت على أتباع عبدالعزيز فنال الواحد منهم ما بين مئة ومئة وخمسين جنيهًا. وهذه مبالغة واضحة.

اشتهرت لدى بعض الكُتَّاب باسم معركة الشَّنانة وإن لم تدر رحاها على أرض تلك البلدة؛ وذلك في الثامن عشر من رجب سنة ١٣٢٢هـ/٢٧/٩/١٩٠٤م[١].

وقد وصفت أكثر المصادر معركة الشِّنانة بأنها كانت ضارية. لكن يفهم من كلام القاضي عنها أنها كانت أقرب ما يكون إلى الانسحاب[٢]. على أن أَهمِّيتها تكمن في نتائجها التي من أبرزها حصول الملك عبدالعزيز وأتباعه على غنائم كثيرة، وتَفكُّك جبهة خصمه؛ إذ حدث خلاف بعد تلك المعركة بين ذلك الخصم وحلفائه العثمانيين، ولم يخوضوا معه معركة ضد الملك عبدالعزيز.

٣- القصيم بين معركتي الشِّنانة وروضة مُهنَّا:

وصل ابن رشيد، بعد انهزامه في الشِّنانة، مع عدد قليل من خَيَّالته إلى النَّبهانية[٣]. أما باقي جيشه فقد تتابع وصول كثير منهم إلى هذه البلدة خلال الليل منهكين[٤]. ومنهم من هام على وجهه، ووصل إلى أمكنة أخرى، أو لقي حتفه[٥]. وفي صباح اليوم التالي شَدَّ ابن رشيد ومن التحق به الرحال مُتَّجهين

---

(١) ذكر حدوث المعركة في هذا التاريخ القاضي، ص١٧؛ البسام، ورقة ١٧٤أ؛ الزركلي، ج١، ص١٦٤؛ ابن ناصر، ص٥٣. وقد أخطأ في تاريخها كل من ابن هذلول وآل عبدالمحسن. فجعله الأول في ٢٨ رجب، ص٧٣. وجعله الثاني في ١٨ شعبان، ج٢، ص٣٠.

(٢) مما يؤيِّد ما ذكره قول لوريمر (ج٣، ص١٧٠٥): «انهزمت القوات التركية، وفرَّ ابن رشيد مختفيًا». ولقد ذكر البسام (ورقة ١٧٤أ) أنه قد قتل من جيش ابن رشيد حوالي اثني عشر رجلًا. ومن أتباع ابن سعود نحو خمسة رجال، منهم عبدالله البواردي المعروف بحجرف». ولعلَّ كلام البسام، هنا: لا يمثِّل الحقيقة؛ إذ من المستبعد أن يكون عدد القتلى من الطرفين ما ذكره فقط. لكن كلامه، على أي حال، يرجِّح أن عدد القتلى لم يكن كبيرًا.

(٣) النبهانية: بلدة في غربي القصيم تبعد عن الرس حوالي ٤٥ كيلًا باتجاه المدينة المنورة. انظر عنها العبودي، ج٦، ص٢٣٩٢.

(٤) القاضي، ص١٧.

(٥) ابن هذلول. ص٧٣؛ ابن ناصر، ص٥٦.

شمالاً حتى وصلوا أخيرًا إلى الكَهْفة. وكانت حالة الجنود النظاميين سيئة جدًّا؛ إذ كانوا يسيرون على أقدامهم، وقد أخذ الجوع والتعب منهم مأخذهما[١]. وكان عدد من وصلوا منهم مع ابن رشيد إلى ذلك المكان حوالي سبع مئة رجل فقط[٢]. واستقام ذلك الأمير ومن معه هناك ثلاثة أشهر دون القيام بأَيِّ عمل عسكري. وكان يواصل جهوده للحصول على معونة عثمانية جديدة. ثم بدأ يَشنُّ غارات على فئات من القبائل المعادية والمسالمة له على حَدٍّ سواء[٣]؛ وذلك للحصول على الإبل، والظهور بمظهر القوي.

أما الملك عبدالعزيز فقد عاد، بعد انتصاره في الشِّنانة، إلى عُنَيزة، واستقام فيها أيامًا، ثم عاد إلى الرياض. وفي العاشر من رمضان خرج غازيًا بأهل العارض، وهجم على بَرْغَش بن طوالة في لِيْنَة[٤]. فغنم منه إبلًا وغنمًا، ثم عاد إلى الرياض[٥].

وكان من نتائج معركة الشِّنانة أن بدأت اتِّصالات بين العثمانيين والملك عبدالعزيز أَدَّت إلى مفاوضات بينهما. وتختلف المصادر في تحديد الطرف الذي بدأ تلك الاتِّصالات. والمتأمِّل في سيرة الملك عبدالعزيز يرى أنه لم يستهن أبدًا بخصم. وكان انتصاره في الشِّنانة، جزئيًّا، انتصارًا على العثمانيين. ولذلك فإن من المحتمل جِدًّا أن ذلك الانتصار لم يدفعه إلى إغفال خطر قُوَّتهم، وأنه اتَّصل بوالي البصرة العثماني معربًا عن حسن نواياه تجاه الدولة العثمانية، كما تذكر

---

(١) القاضي، ص١٨.

(٢) لوريمر، ج٣، ص١٧٠٥.

(٣) القاضي، ص١٨.

(٤) لِيْنة: أحد مراكز إمارة الحدود الشمالية للمملكة. ولمعرفة المزيد عنها يمكن الرجوع إلى ما كتبه الشيخ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة**، ج٣، ص ص ١١٦٧ - ١١٧٣.

(٥) القاضي، ص١٨.

بعض المصادر[1]. فإن كان ما ذكرته صحيحًا فإن اتِّصاله كان، على الأرجح، محاولة منه لتفادي إرسال قوات جديدة ضده، وأملًا في تحييد تلك الدولة في نزاعه مع ابن رشيد. وكان اتِّصاله إثر انتصاره هو الوقت المناسب؛ لأنه يقوم به من مركز قوَّة نِسْبيًّا. ولقد كانت الدولة العثمانية مُهيَّأة للاتصال به، والاطلاع على وجهة نظره. ذلك أنها أدركت عدم تجاوب النجديين، بصفة عامة، مع حليفها ابن رشيد، ووقوفهم مع الملك عبدالعزيز مما كان سببًا كبيرًا لانتصاره. ومن هنا فإنها انتهزت فرصة اتِّصال الملك بواليها، وبذلت جهودًا مُكثَّفة كي يَتمَّم اجتماع بينه وبين ذلك الوالي. على أنها لم تشأ أن تتفاوض معه ومركزها يبدو ضعيفًا. ولهذا بعثت إلى نجد قوة من العراق بقيادة المشير أحمد فيضي، وقوة أخرى من المدينة بقيادة الفريق صدقي باشا[2]. ولقد انطلق ابن رشيد من معسكره في الكهفة لمقابلة المشير، فتفاوض معه، وفشل في إقناعه برأيه. ثم ذهب إلى الفريق، فأخبره هذا بأنه تابع للمشير[3]، فعاد إلى معسكره مُتوتِّرًا. وواصل القائدان العثمانيان طريقهما إلى القصيم بعد أن انضمَّ إليهما من كان معه من الجنود النظاميين السابقين[4]. ووصل الجميع إلى هذا الإقليم بقيادة المشير أحمد فيضي.

ونتيجة للاتِّصال الذي تَمَّ بين العثمانيين والملك عبدالعزيز -بغض النظر عَمَّن بدأه- تَوجَّه الإمام عبدالرحمن بن فيصل إلى العراق عبر الكويت، حيث

(١) لوريمر، ج٣، ص١٧٠٦؛ فاسيلييف؛ اعتمادًا على الأرشيف الروسي، ص٢٦٠.

(٢) اختلفت المصادر في تحديد أعداد القوتين. فالقاضي (ص ص ١٨ - ١٩) يذكر أن القوة الأولى عشرة طوابير، والثانية ثلاثة. والريحاني (ص١٤٨) يقول: إن القوة الأولى ثلاثة طوابير، والثانية طابوران. والبسام (ورقة ١٧٤ب - ١٧٥أ) يشير إلى أن الأولى ستة طوابير، والثانية ثلاثة. ولوريمر (ج٣، ص١٧٠٧) يحدِّد عدد أفراد القوة الأولى بثلاثة آلاف، والثانية بربع هذا العدد.

(٣) القاضي، ص ص ١٨ - ١٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٩.

انضمَّ إليه مبارك بن صباح. وبحث، قرب الزبير، مع والي البصرة الأوضاع في نجد. وعرض عليه الوالي أن تكون الأقاليم الواقعة جنوب القصيم تابعة للملك عبدالعزيز، والأقاليم الواقعة شماله تابعة لابن رشيد، وأن يكون القصيم إقليمًا فاصلًا بين الطرفين تحت سيادة الدولة العثمانية، التي ستجعل فيه حاميتين عسكريتين: إحداهما في بُرَيدة والأخرى في عُنَيزة. ولم يقبل الإمام ذلك العرض، لكنه لم يرفضه أيضًا؛ بل وعد بطرحه أمام ابنه وأهل نجد لدراسته[1]. وعندئذ أخبره الوالي بأن المفاوضات اللاحقة ستكون بين ذلك الإمام والمشير أحمد فيضي، الذي كان في طريقه حينذاك إلى القصيم[2].

وبعد أن وصل فيضي إلى القصيم أرسل مندوبًا إلى الملك عبدالعزيز، الذي كان قد تَوجَّه صوب ذلك الإقليم، واتَّخذ من العمار مركزًا له، وأخبره أنه لم يقدم إلى نجد للحرب، وإنما قدم إليها للصلح وتحقيق الأمن[3]. وبعث مندوبًا إلى أمير بُرَيدة، وآخر إلى أمير عُنَيزة، يطلب منهما إرسال مندوبين إليه للتفاوض. فأرسل إليه الأول عبدالله بن عمرو ومحمدًا أبا الخيل، وأرسل الثاني عبدالله المحمد القاضي[4]. لكن اجتماع المشير بالمندوبين كان اجتماعًا تمهيديًّا. وفي اليوم الأول من صفر، سنة ١٣٢٣هـ، نزل المشير قرب بُرَيدة، وخرج إليه أميرها، صالح الحسن المُهنَّا، وتفاوض معه. ويبدو أن ذلك الأمير قد أعرب عن استعداده لأن يكون تابعًا للدولة العثمانية مستقلًّا عن كُلٍّ من ابن سعود

---

(١) الريحاني، ص١٤٩؛ ابن هذلول، ص٧٤.

(٢) البسام، ورقة ١٧٤ب.

(٣) الريحاني، ص١٤٩؛ ابن هذلول، ص٧٥.

(٤) القاضي، ص١٩. لكنه لم يشر إلى أبا الخيل. وقد ذكر الريحاني (ص١٤٩) أن أمير بريدة أرسل إلى المشير ابن عمرو وأبا الخيل. وكأن مبادرة الاتصال من ذلك الأمير. ولم يشر إلى عنيزة. ويبدو أن ابن هذلول قد اعتمد على الريحاني في هذا الأمر فقال ما قاله، انظر ص٧٤ من تاريخه.

وابن رشيد[١]. ولَعلَّه كان يأمل بأن يصبح حاكمًا للإقليم. وبعد ثلاثة أيام وصل المشير إلى مشارف عُنَيزة، حيث ظهر إليه أميرها، عبدالعزيز بن عبدالله بن سُلَيم. وقد أوضح هذا الأمير أن أمر الدولة مطاع، لكن لا بد من الرجوع إلى الملك عبدالعزيز لتقرير شؤون البلاد[٢]. وكان المشير قد طلب من الملك أن يبعث والده إلى عُنَيزة للتفاوض، فقدم الإمام إليها، وتباحث معه. وقد أعاد المشير ما سبق أن عرضه والي البصرة، فرفض الإمام ذلك. فاقترح المشير أن يكون في كُلٍّ من بُرَيدة وعُنَيزة مركز عثماني مُؤقَّت، فيه عدد من الجنود يرفعون العلم العثماني. ويبدو أنه أراد بهذا الاقتراح أن يظهر أمام الدولة العثمانية بأنه حَقَّق شيئًا من النجاح. وقد قبل الإمام اقتراحه[٣]؛ مرونة منه، واقتناعًا بأنه وضع لن يستمر. وما كاد ذلك يَتمُّ حتى أمر إلى المشير بأن يغادر نجدًا إلى اليمن للعمل على مواجهة الثورة القائمة هناك[٤]. فترك القصيم في اليوم الثامن من صفر، وخلفه في القيادة الفريق صدقي، الذي انتقل إلى الشِّيحية واتَّخذها مركزًا له دون أن يقوم بأَيِّ نشاط عسكري. ونتيجة لما اتُّفق عليه دخلت إلى كُلٍّ من بُرَيدة وعُنَيزة مفرزة صغيرة من الجنود العثمانيين، ورفع العلم العثماني فيهما[٥].

٤- معركة روضة مُهنَّا:

بعد أن وصلت المحادثات بين العثمانيين والإمام عبدالرحمن بن فيصل- نائبًا عن ابنه- إلى ما وصلت إليه انقسم زعماء القصيم وأهله إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) هذا ما نص عليه الريحاني وابن هذلول في الموضعين المشار إليهما في الهامش السابق.

(٢) القاضي، ص١٩، وقد قال هذا المؤرخ قصيدة في تلك المناسبة منها:

طارش السلطان يا للّي لفانا ما دري عن مطلبه وش يريد
كان يبي الزين منا لقانا لامر مولانا على ما يريد

(٣) الريحاني، ص١٥٠.

(٤) القاضي، ص٢١؛ البسام، ورقة ١٧٥ب؛ الريحاني، ص١٥٠.

(٥) القاضي، ص٢٠؛ لوريمر، ج٣، ص١٧٠٧.

قسم يرى التَّمسك بالقيادة السعودية؛ وهم أمراء عُنَيزة وأهلها، وكثير من أهل بُرَيدة والبلدان التابعة لها. وقسم يرى الاستقلال عن تلك القيادة والتبعية المباشرة للدولة العثمانية؛ وهم أمراء بُرَيدة وقليل من أهلها. وقسم يرى الانضمام إلى ابن رشيد والتعاون معه[١]، وهم بعض زعماء الرس؛ خاصة الذين لم يكونوا فيها حينذاك. ودافعهم الأكبر، فيما يبدو، العودة إلى إمارة بلدتهم التي فقدوها[٢].

ولقد حدثت مشكلة في قطر، فبعث حاكمها، قاسم بن ثاني، إلى الملك عبدالعزيز يستنجده لحلِّها. فانطلق الملك من القصيم لنجدته[٣]. وكان ذلك هو السبب الأكبر لمغادرته هذا الإقليم. على أن من المصادر ما يشير إلى أن تلك المغادرة أريد بها أن يَتَّضح عمليًّا لأمراء بُرَيدة، ومن يرون رأيهم أنهم لا يستطيعون الوقوف بدونه أمام خطر ابن رشيد عليهم[٤].

وكان الأمير عبدالعزيز بن رشيد قد ساءه ما تَوصَّل إليه العثمانيون مع الملك عبدالعزيز حول القصيم. فعزم على أن يستعيد نشاطه العسكري في هذا الإقليم منفردًا. وبعث سَريَّة إلى الرس بقيادة حسين بن عسَّاف، أمير البلدة سابقًا، فدخلتها، واستولت على مقاليد الأمور فيها[٥]. وجَهَّز أمير بُرَيدة سَريَّة من مئتي رجل، وانضمَّ إليها مئة من أهل عُنَيزة، ووصل الجميع إلى الشِّقة حيث هاجمهم ابن رشيد، لكنهم نجوا منه بالانسحاب تحت جنح الظلام[٦].

---

(١) الريحاني، ص١٥١؛ ابن هذلول، ص٧٦.

(٢) كان الأمير حسين بن عسَّاف قد فقد إمارة الرس عام ١٣٢٢هـ، فترك البلدة، واستقام لدى ابن رشيد.

(٣) الريحاني، ص١٥٤.

(٤) ابن هذلول، ص٧٦.

(٥) القاضي، ص٢٠. وقد ذكر أن إرسال السريَّة تمَّ في منتصف جمادى الأولى عام ١٣٢٣هـ.

(٦) الذكير، نسخة خاصة، ص٧٢. وما قاله الذكير عن تلك الحادثة نقل عمَّن حضرها. وهو يبيِّن ضعف ما قاله الريحاني (ص١٥٥) من أن ابن رشيد ذبح أكثر من هجم عليهم.

على أن ما حدث أظهر لأمير بُرَيدة خطأ موقفه. فأرسل أخاه مُهنَّا وعددًا من كبار جماعته إلى أمير عُنَيزة، يلتمس منه أن يَتوسَّط له عند الملك عبدالعزيز، فوافق على ذلك، وبعث معهم وفدًا إلى الرياض. فاستقبلهم الملك بصدر رحب، وعفا عما بدر من أمير بُرَيدة[1]. ثم أرسل أخاه محمدًا إلى القصيم. فوصل إلى عُنَيزة، ثم انتقل منها إلى بُرَيدة. وفي العاشر من شعبان وصل الملك نفسه إلى عُنَيزة. وبعد وصوله إليها بثلاثة أيام أغار ابن رشيد على أطراف بريدة، فَهبَّ أخو الملك وأهلها لملاقاته، لكنه انسحب شمالاً. وكان الملك عند سماعه بما قام به ابن رشيد قد انتقل إلى بُرَيدة وبرفقته غزو أهل عُنَيزة[2]. واستقام هناك حيث بعث أتباعه في وسط نجد وجنوبها يطلب منهم التَّوجه إليه بغزاتهم. ثم خرج من بُرَيدة لملاقاتهم مظهرًا أنه عائد إلى بلده. لكنه عندما وصل إلى الغزاة المُتَّجهين إليه هجم بهم على فريق من القبائل الموالية لابن رشيد. وعلم هذا الأخير بأنه لم يكن معه عدد كبير من أتباعه، فعزم على توجيه هجوم مباغت إليه. لكن أخا الملك، محمد بن عبدالرحمن، بعث إليه من بُرَيدة رسولاً ينذره بتَوجُّه ابن رشيد نحوه. وعلم ابن رشيد بوصول أخبار تَحرُّكه إلى الملك، فاعتقد أن زمام المفاجأة قد أفلت من يده، فانصرف. وعاد الملك إلى بُرَيدة، ثم غادرها إلى الرياض[3].

وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة خرج الملك عبدالعزيز بأتباعه غازيًا. ونزل الأسياح حيث أقام حوالي عشرين يومًا انضمَّ إليه خلالها غزاة القصيم. وقد علم أن ابن رشيد تَوجَّه بأتباعه إلى إقليم سُدَير، فخشي أن ينال

(١) ابن هذلول، ص٧٦؛ آل عبدالمحسن، ج٢، ص٥٢.

(٢) القاضي، ص٢١.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها، الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٧٢ - ٧٣. وقد بعث الأمير محمد الرسول. على ناقة مشهورة بسرعتها اسمها مصيَّحة.

أهله منه سوء. ولحق بأثره[1]. وفي أثناء سيره استأذنه أمير بُرَيدة، صالح الحسن المهنَّا، بالرجوع إلى بلدته، فأذن له[2]. ولما وصل إلى الزُّلفى بلغه أن خصمه امتار من المَجْمعة، وعاد مُتَّجهًا شمالًا. ومضى الملك في سيره حتى وصل إلى مجمع البطنان غرب الدهناء. ثم قام بمهاجمة بعض القبائل المُؤيِّدة لخصمه، كما قام ذلك الخصم بمهاجمة المُؤيِّدين للملك[3].

وفي السادس عشر من صفر، عام ١٣٢٤هـ/١٠/٤/١٩٠٦هـ، نقل كشافة الملك عبدالعزيز، أو سُبُوره، إليه خبر نزول الأمير عبدالعزيز بن رشيد على بعد ساعتين منهم في روضة مُهنَّا الواقعة غربي رمال الثُّوَيرات.فأما أتباعه المُكوَّنين من ست مئة وألف مقاتل؛ بينهم أربع مئة خَيَّال، بالتَّوجه لمهاجمة خصمه، الذي كان جيشه يزيد على هؤلاء بمئتي مقاتل تقريبًا[4]. وفي الثلث الأخير من ليلة السابع عشر من ذلك الشهر بدأوا هجومهم. وهَبَّ ابن رشيد ومن معه لقتالهم. وحميت المعركة تحت جنح الظلام، فتقهقر المهاجمون، الذين أخذتهم المفاجأة نوعًا ما. وبينما كان ابن رشيد يصول ويجول محرِّضًا أتباعه على الاستبسال أصبح بين أتباع الملك عبدالعزيز دون علمه، وصاح مخاطبًا حامل الراية السعودية: «من هان يا الفريخ»؛ ظَانًّا أنه حامل رايته. فعرفه عدد من هؤلاء الأتباع، وصَوَّبوا إليه نيران بنادقهم، فخَرَّ صريعًا، وانهزم أتباعه. فتَعقَّب خصومهم فلولهم حتى ضحى ذلك اليوم. ثم عادوا إلى ميدان المعركة،

---

(١) القاضي، ص٢١.

(٢) الريحاني، ص١٥٦.

(٣) القاضي، ص٢١، الذكير، نسخة خاصة، ص٧٣.

(٤) القاضي، ص ص ٢١ - ٢٢؛ الريحاني، ص ص ١٥٧ - ١٥٨؛ ابن هذلول، ص ص ٧٨ - ٧٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٧٤؛ ضاري الرشيد، ص ص ١٢١ - ١٢٣.

وأخذوا خاتم ابن رشيد وسيفه إلى الملك عبدالعزيز[1]. وهكذا كان مصير ذلك الأمير الذي بذل قصارى جهده لمقاومة هذا الملك ليحول دون استعادته حكم نجد منه. وبمقتله أصبح مركز الملك عبدالعزيز أكثر قُوَّة وثباتًا.

٥- القصيم بين سنتي ١٣٢٤ و١٣٢٦هـ:

بعد انتصار الملك عبدالعزيز في روضة مُهنَّا قام بغزو خاطف لفئات من قبيلة حَرْب التي كانت حينذاك موالية لآل رشيد، وكسب منها بعض الغنائم[2]. وتلا هذا عودة بلدة الرس إلى طاعته. وذلك لمقتل الأمير عبدالعزيز بن رشيد الذي كانت زعامتها مبايعة له[3].

ولقد كانت بعض مواقف أمير بُرَيدة وتوابعها، صالح الحسن المهنَّا، تتعارض مع ما كان يراه الملك عبدالعزيز رغم تبعيته الرسمية له. ويبدو أن الملك كان قد اقتنع بأنه لا بد من إبعاده عن الإمارة لتفادي أَيِّ خطر محتمل منه. لكنه كان ينتظر الوقت المناسب لذلك الإبعاد. وكان مقتل الأمير عبدالعزيز بن رشيد من أكبر العوامل التي هَيَّأت للملك هذا الوقت المناسب. ذلك أنه قَوَّى مركزه وأضعف موقف القوات العثمانية ومن يأملون في دعمها. ومن المحتمل صدق ما ذكرته بعض المصادر عن اتِّصال الأمير صالح بقائد تلك القوات[4]؛ محاولًا، فيما يبدو التنسيق معه خوفًا من أن يتَّخذ الملك عبدالعزيز أَيَّ إجراء ضده. لكن ذلك الاتِّصال لم يؤدِّ إلى أَيِّ خطوة عملية على أَيِّ حال.

---

(١) تقول بعض الروايات: إن قتلى أتباع ابن رشيد كانوا يتراوحون بين ٤٠٠ و٢٥٠، وقتلى أتباع الملك عبدالعزيز ١٩ فقط. إبراهيم، ص ص ٢١٠ - ٢١١. لكن الذكير يقول: إن قتلى الفريق الأول ٢٠٠، وقتلى الفريق الثاني نصفهم تقريبًا. وقد حُمِل رأس ابن رشيد إلى بريدة، ثم إلى عنيزة حيث دفن فيها.

(٢) القاضي، ص٢٢؛ الريحاني، ص١٥٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٠.

(٣) كان حسين بن عسَّاف قد استعاد إمارة الرأس، بتأييد من ابن رشيد، عندما دخلها في منتصف جمادى الأولى عام ١٣٢٣هـ. انظر القاضي، ص ص ٢٠و ٢٢.

(٤) الريحاني، ص١٥٩؛ ابن هذلول، ص٨٠، آل عبدالمحسن، ج٢، ص٥٩.

وما دام الوقت قد أصبح مناسبًا للتَّخلُّص من الأمير صالح المهنَّا فإن الملك عبدالعزيز المتَّسم بحصافة الرأي لم يعدم الوسيلة التي تُحقِّق له ذلك بطريقة مأمونة العواقب. وفي اليوم الثاني من ربيع الثاني، سنة ١٣٢٤هـ، دخل قصر إمارة بُرَيدة حيث كان يوجد الأمير صالح وبعض إخوانه، ودعا فِرَقًا من أتباعه أن تدخل القصر دفعات؛ مظهرًا أنه سَيجهِّزهم ليذهبوا لجمع الزكاة من القبائل. وكان قد رَتَّب معهم أن يغلقوا أبواب القصر إذا اكتمل دخولهم، ويسارعوا في القبض على صالح وإخوانه. وتَمَّ ذلك دون إراقة دماء. فبعث المعتقلين إلى الرياض لسجنهم هناك[١]. وعَيَّن محمد بن عبدالله أبا الخيل أميرًا في بُرَيدة[٢].

وكان الأمير متعب بن عبدالعزيز آل رشيد قد خلف أباه في الإمارة. وقد حاول أن يُحسِّن علاقته بالملك عبدالعزيز. فبادر إلى إطلاق سراح من كانوا مسجونين في حائل من آل سعود[٣]. ثم اتَّفق معه على أن تكون المناطق الواقعة شمال القصيم تحت إمارته، وما عداها من أقاليم نجد تحت حكم الملك عبدالعزيز[٤].

---

(١) القاضي، ص٢٢؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٧٤.

بعد بقاء صالح وإخوته فترة في سجن الرياض تمكَّنوا من الهروب. ثم أُلقي القبض عليهم، فقُتل صالح وأخوه مهنَّا. أما أخواه عبدالعزيز وعبدالرحمن فعُفي عنهما. البسام، ورقة ١٧٩ب. ويقال: إن هربهم كان نتيجة قتل الحارس، وإن قتل صالح وأخيه مهنَّا كان، لذلك، قصاصًا. ابن هذلول، ص٨٠؛ آل عبدالمحسن، ج٢، ص٦٠. لكن من الروايات الشفهية ما يذكر أنهم كانوا يرشُّون جدار المكان الذي هم فيه من السجن كل يوم بالماء، ويحفروه شيئًا فشيئًا دون علم الحراس حتى وضعوا نقبًا، وتسلَّلوا من خلاله.

(٢) القاضي، ص٢٢؛ الريحاني، ص١٥٩. ومحمد أبا الخيل من أسرة الأمير السابق.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص١٦٠. وأطلق أيضًا، سراح من كانوا في حائل من آل سُلَيِّم. الذكير، نسخة خاصة، ص٧٤.

(٤) الريحاني، ص ص ١٥٩ - ١٦٠؛ ابن هذلول، ص٨٠.

٦- رحيل القوات العثمانية عن القصيم:

من الواضح أن زعماء الدولة العثمانية قد أدركوا أن القائد صدقي لم يقدر على تحقيق ما هدفوا إليه في القصيم. ولذلك بعثوا من المدينة المنوَّرة قائدًا آخر اسمه سامي الفاروقي. فمَرَّ هذا القائد بالأمير متعب بن رشيد، واتَّفق معه على أن يكون القصيم إقليمًا تابعًا للدولة العثمانية[١]. ولما وصل إلى الشِّيحية، وتَسلَّم قيادة الجيش فيها، أرسل إلى الملك عبدالعزيز يطلب مقابلته. فتوجَّه الملك إليه، وقابله في البُكَيْرية. لكن الملك رفض ما وافق عليه ابن رشيد. واحتدم النقاش بينهما، فترك الملك مكان الاجتماع غضبًا، وعاد الفاروقي إلى معسكر جيشه في الشِّيحية[٢]. وبدا وكأن الملك قد عزم على مهاجمة ذلك الجيش[٣]. وهذا ما دفع الفاروقي إلى إرسال مندوبين إلى الملك مظهرًا حسن نِيَّته. فاطمأن الملك نِسْبيًّا، وعاد إلى الرياض[٤]. على أن مخاوف أمراء القصيم من الجيش العثماني ظَلَّت قائمة؛ خاصة أنه قد لجأ إلى قائد ذلك الجيش سليمان الحسن المهنّا، الذي كان محمد أبا الخيل يخشى أنه يُدبِّر مؤامرة للاستيلاء على بُرَيدة. وكانت خشيته في محَلِّها. ذلك أن سليمان اتَّفق مع عدد من أهل هذه البلدة، ودخلها ليلة الخامس والعشرين من رجب محاولًا القضاء على أميرها. لكن الأمير علم به، ففشلت محاولته، وهرب[٥].

---

(١) المصدر الأول نفسه، ص١٦٠؛ ابن هذلول؛ ص٨١.

(٢) القاضي، ص٢٢؛ الريحاني، ص ص ١٦٠ - ١٦١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٧٤ - ٧٥.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص٧٥. وكان الذكير حينذاك مع الملك عبدالعزيز، فرآه خارجًا من خيمة الاجتماع غضبًا. وقد ذكر أن الملك ركب حصانه، كما ركب من كانوا معه من آل سعود وحاشيتهم خيلهم، وراحوا يعرضون عليها ويحمِّسون بقية المحاربين الذين كانوا معهم من أهل القصيم. ثم أرسل إلى بريدة وعنيزة طالبًا المزيد من القوات. وشاع أنه سيهجم على الجيش العثماني فور وصول هذه القوات إليه.

(٤) القاضي، ص٢٢، الريحاني، ص ص ١٦١ - ١٦٢؛ ابن هذلول، ص٨٢.

(٥) القاضي، ص٢٤؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٧٦.

ولقد ازداد موقف القوات العثمانية سوءًا بعد أن منع أمراء القصيم أتباعهم من بيعها ما كانت في حاجة إليه من أطعمة[1]، وأصبحت تتوق إلى مغادرة ذلك الإقليم. وفي العاشر من شعبان وصل الملك عبدالعزيز إلى عنيزة، وتفاوض مع أمراء القصيم، فاستقر الرأي على وجوب انسحاب القوات العثمانية من هناك سلمًا أو حربًا[2]. وأَحسَّ الفاروقي بحرج موقفه، فاتَّفق ابن رشيد على أن يرسل إليه هذا الأمير إبلًا لتحمل قواته إلى جبل شَمَّر حتى تأتيه أوامر من السلطات العثمانية العليا. لكن تلك الإبل لم تقترب من الشِّيحية إلا وقد كان الملك عبدالعزيز قد نزل بأتباعه البُكَيْرية، فعاد من أحضروها بها إلى جبل شَمَّر[3]. وعندئذ خَيَّر الملك الفاروقي بين أن يرحل بقواته إلى السِّر ليكون بعيدًا نوعًا ما عن التنسيق مع ابن رشيد، أو يُرحِّل الملك تلك القوات إلى العراق والمدينة المنوَّرة. فإن رفض هذا وذاك فإنه سيهاجمه. وبناء على ضغط من ضباط القوات وجنودها قبل الفاروقي أن ترحل قواته من نجد[4]. وقد أمر الملك قبيلة حَرْب أن تحمل القوات الشامية إلى المدينة، فغادرت القصيم في الخامس عشر من رمضان سنة ١٣٢٤هـ. أما القوات القادمة من العراق، فأبقاها الملك حتى الثالث عشر من شوال، ثم رَحَّلها بإيجار مع أهل القصيم[5]. ووصل هؤلاء وأولئك إلى وجهتيهما بسلامة وأمان. وقد كتب الملك رسائل إلى من لهم علاقة برحيل تلك القوات. ومما جاء في إحدى تلك الرسائل قوله:

---

(١) يذكر القاضي (ص٢٣) ما بذله قادة الجيش العثماني من إغراءات مالية لأمير عنيزة وأهلها لشراء أطعمة لدرجة أنهم عرضوا أن يشتروا صاع البر بجنيه، لكنهم لم ينجحوا في مسعاهم.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٤) الريحاني، ص١٦٢.

(٥) القاضي، ص٢٥.

«لما رأينا ما حلَّ بالعسكر من الجوع والمرض والكسافة اجتهدنا فيما يصلح أحوالهم. والمقصود بذلك رضا الله ثم رضا أمير المؤمنين. وصار القرار أنهم يرحلون، وأجبناهم لذلك، ورحَّلناهم»[١].

وقد شكرت السلطات العثمانية العليا الملك على ما عمله مع العسكر من التأمينات، وطلبت منه إرسال من يعتمد عليه إلى دار الخلافة ليمثل بين يدي السلطان، فأرسل وفدًا برئاسة صالح بن عَذْل، ونال الوفد كُلّ تكريم، ومُنِح أعضاؤه نياشين، كما مُنِح رئيسه لقب الباشوية[٢].

٧- ما بعد رحيل القوات العثمانية:

على أن رحيل القوات العثمانية من القصيم لم يكن نهاية المشكلات في هذا الإقليم. فبعد رحيلها بشهر قام سلطان وسعود وفيصل، أبناء حمود العُبيد بن رشيد، باغتيال الأمير متعب بن عبدالعزيز وأخويه مشعل ومحمد. وتَولَّى سلطان مقاليد الأمور في جبل شَمَّر[٣]. وقد أظهر المَودَّة للملك عبدالعزيز في بداية الأمر، لكنه كان في الوقت ذاته يَتَّصل بزعماء بلدان القصيم؛ خاصة بُرَيدة وعُنَيزة، ليقفوا معه ضد الملك[٤]. وفي شهر ذي الحجة خرج بأتباعه من حائل منتظرًا الفرصة لمهاجمة القبائل التابعة للملك. وما إن علم الملك عبدالعزيز بخروجه حتى تَوجَّه إلى القصيم. وقام كل من الطرفين بِتَحرُّكات أشبه ما تكون بالمناورات. وعاد في نهايتها سلطان إلى قاعدة إمارته[٥]. وبينما كان الملك قرب

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص٧٧.

(٢) الريحاني، ص١٦٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٧٨.

(٣) القاضي، ص٢٥؛ البسام، ورقة ١٧٧ب.

(٤) القاضي، ص٢٦؛ الريحاني، ص١٦٨.

(٥) القاضي، ص ص ٢٦ - ٢٧.

بُرَيدة أمسك أتباعه برسول من أميرها يحمل مكاتيب إلى سلطان بن رشيد مُتضمِّنة استعداده للوقوف معه[1]. فدخل الملك هذه البلدة، واجتمع بأميرها وكبار أهلها. ومع عدم ثقته، فيما يبدو، بذلك الأمير فإنه لم ير الوقت مناسبًا بعد للتَّخلُّص منه. فاكتفى بأخذ البيعة معه مُجدَّدًا[2]. ولَعلَّ من أسباب تَريُّث الملك أنه كان يريد التفرُّغ لتأديب زعيم قبيلة مُطَيْر، فيصل الدويش، الذي خرج عن طاعته. وانطلق الملك من بُرَيدة حيث انضمَّت إليه فئات من قبيلة عُتَيْبة بقيادة محمد بن هندي. وعلم الدويش بِتَحرُّكهم نحوه، فمضى إلى بلدة المَجْمعة، وعسكر خارجها. وعندما وصلت إليه قوات خصومه هَبَّ أهل تلك البلدة لنجدته. ودارت بين الطرفين معركة ضارية جُرح خلالها الدويش[3]، واضطر أتباعه ومن أنجدوهم إلى دخول البلدة والاحتماء بأسوارها. وكسب الملك ومن معه ما كان خارجها من إبل مُطَير وأمتعتها. ثم طلب زعيم مُطَير العفو من الملك، فعفا عنه[4]. وكانت تلك المعركة في الثالث والعشرين من ربيع الأول عام ١٣٢٥هـ[5].

بعد المعركة السابقة عاد الملك عبدالعزيز إلى الرياض. أما أمير بُرَيدة فنكث عهده للملك، واتَّفق مع الأمير سلطان الحمود بن رشيد على أن يكونا يدًا واحدة[6]. وأرسل وفدًا إلى أمير عُنَيزة محاولًا إقناعه بالوقوف معهما. وكان

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧؛ الريحاني، ص١٦٩؛ آل عبدالمحسن، ج٢، ص٧٣.

(٢) القاضي، ص٢٠٧؛ الريحاني، ص١٦٩.

(٣) يقول الذكير (نسخة خاصة، ص٨٠): إن الذي جرحه وألقاه من ظهر جواده فاجر بن شليويح. ويورد تفصيلًا عن مبارزتهما. ويذكر ذلك، أيضًا، القاضي، ص٢٧.

(٤) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها؛ الريحاني، ص١٦٩.

(٥) عبدالرحمن بن ناصر، ج١، ص ص ٦٨ - ٦٩.

وظلَّت بلدة المجمعة خارج حكم الملك عبدالعزيز حتى عام ١٣٢٦هـ عندما ذهب وفد من أهلها إليه في بريدة، وبايعوه على السمع والطاعة. المصدر نفسه، ج١، ص٧٣.

(٦) القاضي، ص٣٩، الريحاني، ص١٧٠؛ ابن هذلول، ص٨٦.

مما شكا منه أعضاء الوفد كثرة من يطلبهم الملك من أهل القصيم للقتال معه، وإرهاقهم بطلب الأموال لتمويل ذلك القتال. فلما أوضح أمير عُنَيزة لهم بأن ما عاناه أهل القصيم من آل رشيد كان عظيمًا جدًّا، قالوا: إنهم قد أصبحوا غير واثقين من الملك؛ خاصة بعد قضية صالح المهنَّا. فأجابهم بأن موقف صالح هو الذي أَدَّى إلى ما أَدَّى إليه، وأنه مستعد أن يَتَّصل بالملك لإزالة مخاوفهم، والحصول على ما يريدون، بشرط أَلَّا يرتبطوا مع سلطان ابن رشيد بأَيِّ شكل[1]. لكن أمير بُرَيدة وجماعته كانوا، فيما يبدو، مُصمِّمين على الاتِّفاق مع هذا الأخير. ولَعلَّ من أسباب ذلك رغبتهم في أن تعود حركتهم التجارية مع الأقطار الواقعة شمال الجزيرة العربية إلى سابق عهدها. ولذلك استقدموا ابن رشيد، وأهموه بأن أهل عُنَيزة سينضمون إليه حال وصوله إلى القصيم. وتَحرَّك من بلاده حتى وصل إلى هذا الإقليم. وأمضى أكثر من شهر وهو يَتنقَّل من مكان إلى آخر لفرض سيطرته على بلدته. وقدم إليه فيصل الدويش، زعيم قبيلة مُطَيْر، وعاهده. لكن اتَّضح له أن أهل عُنَيزة ليسوا معه؛ بل مع الملك عبدالعزيز[2].

وقد وصل الملك عبدالعزيز- بعد اطلاعه على ما حدث في القصيم- إلى عُنَيزة بأتباعه من الحاضرة والبادية في منتصف شعبان، عام ١٣٢٥هـ، وانضمَّ إليه من أهلها أربع مئة مقاتل بقيادة صالح الزامل. وخرج الجميع ليلًا لمهاجمة سلطان بن رشيد حول بُرَيدة، فعلم هذا بخروجهم، ودخل البلدة. وفي صباح اليوم التالي حدثت مناوشات قليلة بين الطرفين خارج أسوارها. وكان من هم داخلها لا يَودُّون أن يخرجوا منها لئلا يُعرِّضوا أنفسهم لخسائر، ومن هم خارجها لا يرغبون في أن يقتحموها فيعرِّضوا أنفسهم لخسائر أيضًا[3]. وبينما

(١) القاضي، ص ص ٢٧ - ٢٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨١.

(٢) القاضي، ص ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.

تلك المناوشات تجري أقبل الدويش مناصرًا لابن رشيد وأبا الخيل، فَتصدَّى له الملك عبدالعزيز بأتباعه وهزموه، وتَتبَّعوا فلوله حتى وصلوا إلى مخيمه في الطرفية، واستولوا لعيه. أما تلك الفلول فالتجأت إلى بُرَيدة. واتفق كل من ابن رشيد وأبا الخيل والدويش على مهاجمة الملك عبدالعزيز ليلًا في الطرفية. فهاجموه هناك، وهَبَّ هو وأتباعه لمقاتلة خصومهم، فهزموهم[1].

وبعد أن انهزم المتحالفون ضد الملك عبدالعزيز في الطرفية عادت أكثر فلولهم إلى بُرَيدة وبينهم فئة من أهل جبل شَمَّر بقيادة فيصل الحمود بن رشيد. أما أخوه الأمير سلطان فَتوجَّه مع عدد قليل من خَيَّالته شمالًا. ولما اقترب من عيون الجَواء وجد بَرْغش بن طوالة، الذي أشار عليه أَلَّا يدع بُرَيدة عرضة لهجوم محتمل من الملك عبدالعزيز؛ خاصة أن فيها أخاه فيصلًا ومن معه من أهل الجبل، فعاد ودخل هذه البلدة[2].

وأما الملك عبدالعزيز فغادر الطرفية، ونزل قريبًا من بُرَيدة، وسمح لأتباعه بالإغارة على القرى التابعة لها، وأخذ ما يقدرون عليه من ثمار نخيلها وممتلكاتها. وظَلَّ هؤلاء يقومون بذلك حتى طلب سكان تلك القرى العفو منه، فعفا عنهم، ومنع أتباعه من التَّعرُّض لقراهم.

وفي آخر شعبان وصل إلى عُنَيزة، ثم رحل منها إلى البُكَيْرية، فالرس. وكان يهدف من ذلك إلى استخراج سلطان بن رشيد ومن معه لمنازلته بعيدًا

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٣٠ - ٣١؛ الذكير، نسخة خاصة، ص ص ٨٢ - ٨٣؛ الريحاني، ص ص ١٧١ - ١٧٢؛ ابن هذلول، ص ص ٨٦ - ٨٧. وقد اختلفت المصادر السابقة حول تاريخ تلك المعركة وعدد القتلى فيها. فالقاضي والذكير يذكران أنها حدثت ليلة الثامن عشر من شعبان/١٩٠٧/٩/٢٥م، وأن قتلى المتحالفين مئة رجل وقتلى أتباع الملك عبدالعزيز ثلاثون. والريحاني وابن هذلول يذكران أنها وقعت في الخامس من شعبان، وأن قتلى المتحالفين ثلاث مئة وقتل أتباع الملك ثلاثون. ومن المرجح أن المصدرين الأولين أصح؛ خاصة في تاريخ المعركة.

(٢) القاضي، ص٣١؛ الذكير؛ نسخة خاصة، ص٨٣.

عن بُرَيدة. لكن ابن رشيد لم يخرج لمنازلته. بل غادر هذه البلدة تاركًا أخاه فيصلًا مع عدد من الخيَّالة عونًا لأميرها. ومع أنه عاد إلى بُرَيدة فإنه غادرها إلى حائل في آخر الأمر. ولما علم بذلك الملك عبدالعزيز قام بإغارات وصل بها إلى أطراف جبل شَمَّر، ثم رجع إلى الرياض[1].

٨- نهاية إمارة أبا الخيل:

من الأمور التي أقدم عليها الأمير سلطان بن رشيد أخذه قافلة إبل لأناس من أهل بُرَيدة وهي في طريقها إلى الشام[2]. وكان هذا مما أثار غضبهم عليه وعلى أميرهم المتحالف معه. وبذلك ازداد عدد الذين يُؤيِّدون الملك عبدالعزيز من أهل هذه البلدة. فكتبوا إليه يخبرونه بأن الاستياء من أميرها أصبح عامًّا، ويَحثُّونه على التَّوجه إليهم. فخرج من الرياض، وتَوجَّه بأتباعه نحو القصيم. ولما وصل إلى عُنَيزة قدم إليه مندوب من بُرَيدة يخبره بأن أنصاره لم يُمهِّدوا الطريق بَعْدُ لدخوله إيَّاها. وبعد سبعة أيام من ذلك أُخبِر بأن الطريق أصبحت مُمهَّدة، فانطلق إليها، لكنه لم يجد ما أُخبِر به، فراح أتباعه يتلفون الزروع القريبة منها. ثم بلغه أن ابن رشيد قد خرج من حائل لنجدة بُرَيدة، فاتَّجه شمالًا لِصَدِّه عن التقدم إلى القصيم. ولما وصل إلى الكهفة اتضح له عدم صدق ما بلغه. وكان ابن طوالة حينذاك قد التجأ إلى قرية فَيْد[3]، فَتوجَّه الملك لمهاجمته فيها. ولما اقترب منها طلب منه ذلك الزعيم الأمان على أن يكون مواليًا

---

(١) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها. ويرى هذا المؤرخ أن الهدف الأكبر من إبقاء سلطان لأخيه في بريدة إبعاده عن حائل. ولعلَّ مما يؤيِّد هذا الرأي أن فيصلًا لما اختلف مع أمير بريدة، وعاد إلى حائل، عاتبه أخوه وأرسله إلى الجوف. انظر الريحاني، ص١٧٤.

(٢) الذكير، نسخة خاصة، ص٨٥.

(٣) فَيْد: من أقدم القرى وأشهرها في التاريخ. وتبعد عن حائل مئة كيلو تقريبًا. انظر عنها الجاسر، ج٣، ص ص ١٠٤٧ - ١٠٥٢.

له، فوافق الملك على ذلك. واستأذن الزعيم الملك أن يذهب إلى ابن رشيد ليصلح بينهما، فوافق، أيضًا، على ذلك بشرط أن تكون حائل وتوابعها تحت إمارة ابن رشيد وباقي نجد تحت حكم الملك عبدالعزيز[1].

بعد ذلك النجاح ازداد أنصار الملك عبدالعزيز في بُرَيدة، وفترت عزيمة أتباع أميرها. فأصبح الجو مُهيَّأ أكثر من ذي قبل للتَّخلُّص من هذا الأمير. وأرسل أولئك الأنصار إلى الملك يخبرونه بأنهم سيكونون في انتظاره مع أذان العشاء ليلة العشرين من ربيع الثاني عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨/٥/٢١م) عند البَوَّابة الشمالية من البلدة. ولما وصل إليها في الموعد المُحدَّد فتحوها له، ودخل أتباعه بُرَيدة، فحدثت مناوشات بينهم وبين أنصار أميرها. ثم حاصروا الأمير ومن معه في قصرها حتى طلب الأمان في اليوم التالي، فَمُنِح إيَّاه، واستسلم للملك عبدالعزيز. وقد استأذنه في الذهاب إلى العراق فأذن له، ورَحَّله إلى هناك[2]. وعَيَّن مكانه في الإمارة أحمد السديري[3]. ومنذ ذلك التاريخ استقرت أوضاع بُرَيدة وتوابعها تحت راية الملك عبدالعزيز.

*****

(١) القاضي، ص٣٢؛ الذكير، نسخة خاصة، ص٨٥؛ الريحاني، ص١٧٥.

(٢) القاضي، ص ص ٣٢ - ٣٣؛ الذكير؛ نسخة خاصة، ص٨٥؛ الريحاني، ص ص ١٧٥ - ١٧٧.

(٣) الذكير، نسخة خاصة، ص٨٦. على أن السديري نُقِل عن تلك الإمارة بعد عام من توليته، وعيَّن محلَّه عبدالله ابن جلوي. المصدر نفسه، ص٨٨؛ الريحاني، ص١٨٠. وقد غلط فيلبي عندما ذكر (ص٢٥٣) ما يفيد بأن تعيين ابن جلوي كان بعد انتزاع بريدة من محمد أبا الخيل مباشرة. وغلط ابن هذلول في قوله (ص٩١): إن تعيين السديري كان عام ١٣٢٧هـ. فقد حدث في هذا العام نقل السديري وتيعين ابن جلوي، كما ذكر سابقًا.